

بضعة شهور قبل أن يفتاله المرض  
غرهارد هوب: العرب ضحايا النازية

عبد الرؤوف سنو  
عميد كلية التربية/الجامعة اللبنانية

هوى عالم الدراسات العربية غرهارد هوب أرضاً في إحدى دور الوثائق بمدينة برلين قبل بضعة شهور أثناء تجميعه مادة لبحثه الجديد: "العرب ضحايا النازية". لم يدر هوب أنها ستكون زيارته الأخيرة الى دور الوثائق. المرض الخبيث الذي افترس معظم خلايا دماغه، لم يمهله لإنهاء بحثه هذا. فتوفى في الأسبوع الماضي عن عمر لا يتجاوز 61 عاماً. إنها رحلة قصيرة لعالم كان لديه الكثير ليقوله ويعطيه. عندما زرته في المستشفى أثناء وجودي في برلين هذا الصيف، لم أجد هوب المريض الذي ينازع الموت، وإنما هوب العالم الذي لا يألو عن الحديث عن العرب ضحايا النازية، والقول: "إن ما تختزله الصهيونية بضحايا النازية باليهود وحدهم، هو أكذوبة كبيرة".

حتى وفاته في 7 كانون الأول 2003، جعل هوب قضايا التحرر في العالمين العربي والإسلامي خلال حكم الرايخ الثالث فصلاً أحادياً في حياته المهنية. نال الدكتوراه من جامعة لايبزيغ في عام 1972 حول "دور القوى البرجوازية الصغيرة ووظيفتها في الصراع الفكري في البلدان العربية". بعمله هذا، أراد هوب أن يبحث في الصراع الإيديولوجي الطبقي أثناء حركة التحرر العربية. وفي عام 1986، أنهى أطروحة أخرى نال على أساسها درجة الأستاذية، وكانت بعنوان "من القومية الى الاشتراكية. تاريخ وإيديولوجية الحركة القومية العربية والتنظيمات التي خلفتها 1948-1975".

درّس هوب تاريخ الإسلام قبل عام 1945 في جامعتي هومبولدت وبرلين الحرة. وعبر أطروحته، كوّن رصيماً ضخماً من المعلومات والرؤى والاستنتاجات والمواقف كانت هدى له في أبحاثه في السنوات التالية. وأهم من ذلك، أن عالماً الراحل قد جعل من الوثائق الألمانية والنمساوية مادة رئيسية لأبحاثه عن العرب والمسلمين. كان معروف عنه أنه أهم من يعرف مخابئ الوثائق ويستعملها في أبحاثه. كان لا يحب الأسفار، لكنه لا يتردد في الطلب الى زملائه تزويده بالكتب أو المقالات النادرة. وقد لجأت إليه عندما كنت في برلين في أعقاب سقوط جدارها التاريخي، فقادني كخبير الى "أرشيف الأحزاب" وأرشيف "وزارة الخارجية" في برلين (الشرقية) وغيرها من مراكز صنع القرار في ألمانيا الشرقية آنذاك، حيث تمكنت بمساعدته من الإطلاع على الوثائق هناك لإصدار دراستين عن صراع ألمانيا الاتحادية ألمانيا الديمقراطية في العالم العربي. كما كان عوناً لي في الوصول الى وثائق حول الدعاية الألمانية بين العرب والمسلمين أثناء الحرب العالمية الأولى، توجت بدراسة لي حول الموضوع.

بعد سقوط جدار برلين، كان هوب حائراً كغيره من علماء ألمانيا الشرقية، كراتمان ومالكوف يطرح السؤال التالي عما سيحل به بعد سقوط الجدار، وهل سيتحول الى عاطل عن العمل؟ لكن سرعان ما وجد عالم الإسلاميات فريتز شتبات (Fritz Steppat) "ملجأً" للبعض من هؤلاء، ومنهم الراحل هوب في "مركز دراسات الشرق الحديث"، الذي أسسه خصيصاً لهم. أثناء

عمله في هذا المركز كباحث متعاقد منذ عام 1992، كان هوب يخفي غصّة مخفية وراء ابتسامته الذابلية. فوضعه غير الثابت في مركز دراسات الشرق الحديث كمتعاقد وحاجته الى المال، جعله يوقع مع المركز عقداً بعد آخر. من هنا، جاءت أبحاثه العديدة والمميزة كرد على التشكيك في قدرات علماء "الشرقية". بعد توحيد الألمانيتين، كان هناك تشكيك محق وغير محق من قبل الألمان الغربيين بكل ما هو "شرقي"، وحتى بالعلماء والأساتذة.

حدثني هوب مرة عن سره الدفين، وهو شعوره بأنه لن يحتل الصف الأول في ألمانيا الموحدة، بعد سقوط الكثير من القيم والإيديولوجيات والأفكار السائدة في ألمانيا الشرقية ومعها النظام القديم ورموزه بسقوط الجدار. إن الوضع المادي الصعب الذي وجد الألمان الشرقيون أنفسهم فيه بعد الوحدة نتيجة عدم تساوي مرتباتهم وقدراتهم مع مواطنيهم في ألمانيا الاتحادية، أو في الحصول على وظائف ثابتة، زاد من مشاعر الدنيوية لدى الألمان الشرقيين. لكن هوب، استطاع بمثابرته وتسامحه وحبّه للآخرين أن يتجاوز عقدة "مواطن الدرجة الثانية"، على الأقل في إطلالته على الخارج. فكان من أصحاب صنع القرار والإدارة في مركز أبحاث الشرق، لمن دون أن يكون في المراكز الأولى.

تمحورت أبحاث غرهارد هوب حول موضوع متشعب يصب في هدف واحد: علاقة العرب والمسلمين بألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وما بين تلك الحرب والحرب العالمية الثانية. انصبت أبحاثه على تفصي فكر رجالات حركة القومية العربية في مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس والمغرب والجزائر ونشاطاتهم وعلاقاتهم بألمانيا، وتحليل الإشكالية التي وقعت فيها قيادات الحركة العربية من أجل تحقيق الاستقلال: التعاون مع ألمانيا أم مع بريطانيا. فخلص الى أن ألمانيا استغلت الحركة التحرر العربية لمصالحها الخاصة، وما كانت تكتث أثناء الحرب العالمية الأولى لمصير العرب واستقلالهم تحقيقاً لمصالح حليفها الدولة العثمانية. كانت ألمانيا تريد من العرب أن يكونوا عملاء لها وليس حلفاء. أما بالنسبة للحركة العربية وتعاونها مع ألمانيا، فكانت تنطلق من مقولة "عدو عدوي صديقي". إن دور الدعاية الإسلامية الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، حظيت بدورها على اهتمامات هوب. فكتب عن العلماء والمستشرقين الألمان، الذين أشرفوا على الدعاية الألمانية، وأشهرهم ماكس فون أوبنهايم. وأشار الى مسجد فونسدورف Wünsdorf، الذي أسسته ألمانيا للأسرى العرب والمسلمين المحاربين في جيوش الحلفاء، وكيف أن ألمانيا كانت تستخدم بعض رجالات الحركة العربية للتأثير على هؤلاء الأسرى وجعلهم يقاتلون من جديد الى جانب ألمانيا.

عشية الحرب العالمية الثانية وأثناءها، رأى هوب أن ألمانيا لم تبلور سياسة تصب لمصلحة القومية العربية، حيث كانت تراعي في ذلك مصالح حليفها إيطاليا. كما ألقى هوب الضوء، بالوثائق والصور والتحليل، على الدوريات العربية والإسلامية التي كانت تصدر في برلين وبراندنبورغ ما بين عامي 1915 و1945. وفي عام 1998، صدر له تأليف مشترك مع آخرين حول "العرب في برلين"، تناول فيه هوب دور العرب في برلين وبراندنبورغ في ثلاث حقبة تاريخية: قبل الحرب العالمية الأولى، وفي العشرينات، وأثناء حكم هتلر. وتظهر في الدراسة معلومات فريدة وصوراً لمقالات يونس البحري بعنوان "هنا برلين، حيّ العرب"، ومشاهدات كامل مروة "بيروت - برلين - بيروت" ولقاء مفتي القدس الحاج أمين الحسيني بهتلر الخ...

أختم هذا المقال بأخر أبحاث هوب عن ضحايا النازية من العرب أثناء الحرب العالمية الثانية. أخبرني في مراسلاته وأثناء زيارتي له في المستشفى في شهر حزيران من هذا العام، أنه يريد أن يبرهن لأول مرة أن حصر الصهيونية جرائم النازية باليهود هو أكذوبة كبيرة للابتزاز، وأن العرب، كما شعوب أخرى، كانوا من بين ضحاياها.

يعلل هوب سبب عدم تطرق الباحثين العرب أو الألمان الى هذا الموضوع لغياب الذاكرة التاريخية، وغياب الضحية في الذاكرة. فمعظم الدراسات والأبحاث تحدثت عن العرب كحلفاء للنازية، كالحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني. لكن هناك في المقابل عرباً كانوا ضد النازية وعانوا منها. وقد شاهدت في إحدى المرات وثائق لديه تظهر أن عرباً من المشرق والمغرب العربيين كانوا من ضحايا النازية في معسكرات الاعتقال. كما أخبرني أنه عثر على أدلة تثبت أن 1000 ضحية عربية سقطت في معسكرات الاعتقال الألمانية من جراء القتل أو المرض أو التعذيب وإجبارهم على الأعمال الشاقة، وأن هؤلاء قتلوا مرتين: مرة في معسكرات الاعتقال الألمانية، ومرة أخرى عندما تجاهلهم التاريخ. ويدعو هوب المسؤولين الألمان الى دفع التعويضات الى أسر العرب من ضحايا النازية أسوة بغيرهم من ضحايا النازية. وقد أبلغت هوب يومها بوجود الحذر في موضوع التعويضات للعرب خشية إثارة المسؤولين في الدولة عليه. فقال لي بكل ثقة: "إن الحقيقة التاريخية تتجاوز المصالح الشخصية".

إن محاولة الصهيونية جعل جرائم النازية حكرًا على اليهود، كانت موضع انتقاد ونقد من قبل هوب، وهو، كما أخبرني، ما أبلغه الى أحد الصحفيين العرب في مطلع هذا العام. قال هوب إن دبلوماسياً إسرائيلياً زار أحد معسكرات الاعتقال النازية السابقة، فوجد بلداناً عربية مدرجة على لوحة منشأ الضحايا. فطالب هذا الدبلوماسي بإزالة أسماء البلدان العربية من اللوحة، كي يظل اليهود وحدهم يحتكرون مقولة ضحايا النازية، وبالتالي يبتزون العالم شعوباً ودولاً.